قصة قصيرة

«المرأة والنخلة»

هيام محمد

ابطأت سيارة الاجرة تدريجياً ثم توقفت بهدوء.. ظلت ساكنة تنتظر أن يقول شيئاً.. أمسكت بعينيه حين طلعتا من المرآة الامامية الصغيرة..

ـ هذه محطة القطار.. هل من خدمة أخرى؟

بوغتت!!

طبعاً هي المحطة.. تعرف ذلك.

ولكن...

ضغطت على الورقة الصغيرة المستكينة بين اصابعها ساخنة مثل جسد عصفور ينتفض بالحياة ثم فتحت الباب مدفوعة بقوة.. قوة مجهولة متدفقة مثل هبة ريح.

حين مدت ساقيها التصقت بهما العيون التي كانت تنبع من رصيف المحطة وتحوّم في الهواء ومن كل الجهات.

صوتها محتبس.. لم تكن واثقة من المكان.. تقف على حافة منزلق شديد الانحدار متشبثة بقدميها.. رسمت لها خطا للتحرك يبدأ بالمحطة وتمنت في الوقت نفسه حدوث معجزة وهي أن يحملها سائق السيارة مباشرة حيث مبتغاها دون احتمال عذابات انتظار أخرى.. فقد شربت من الانتظار حتى انتفخت وصارت مثل امرأة حامل فات ميعاد ولادتها مما جعل حياتها تنشطر إلى شطرين.. شطر تؤكده حقيقة حملها العلمية، وشطر تجوس فيه احلامها القلقة المبهمة.. وتمر الازمنة متتالية دون أن تفقدها املها في الطمأنينة.

اجتازت الباب الخارجي المقوس وهي تتعثر حتى بدت كأنها تتسلق تلاً من رمال.

زمن المعجزات ولّى وتلاشت ابعاده المؤثرة وغابت مع الماضي السحيق.

ضجيج السفر واللقاءات الحنون الدافئة والوداع الباكي انفجر امامها مرة واحدة.

شعاعات الشمس البيضاء البراقة انعكست على وجهها مما جعله ملتمعاً مثل قطعة ماس نادرة... اعناق المارة تشرئب نحوها تلتقط ما يتناثر من نوره تكنزه في العيون عساه ينفعها أيام القحط.

تسمّرت قرب أول عربة وصكّ سمعها رنين الجرس:

فتحت الباب وهي مسمومة بتوهج ذكريات تحمل زرقة السم فوق شفتيها وتحت جفني عينيها...

ـ انتظريني!!

ترتجف وتتمتم بصوت خائر القوى:

أخيراً.. يظللني الامان وتعود لي سكينة، وهي..

ـ انتظرني.

وهل فعلت غير ذلك.. دفنت نفسي حيةً في تابوت انتظارك، أجوس الدروب وأنا اطارد الامنيات.. أحمل لهفتي المتوجعة واقفز حواجز الزمن الغادر التي تعترض طريقي كما يفعل حصان السباق تماماً.. أدفن عذابات البعاد في اعماقي، احنو عليها.. ارعاها واحبها واخاف عليها كما تفعل الأم الحنون مع طفلها الوحيد..

وتكتب لي:

ـ انتظريني!!

تمشت قليلاً وسط صخب الاخرين.. وحشة الحياة لم تعد باردة مثل ليالي الشتاء.. سخنت الرسالة بين اصابعها فتسربت الحرارة إلى جسدها وشعرت بلذة... الحياة تستنهض قواها الخائرة..

رسمت لها خطاً منظماً يبتدىء بمحطة القطار وإلاّ فستنتظره في الساحة العامة التي تتوقف عندها السيارات القادمة من المدن البعيدة، وأن لم تلتق به فستبيت في قاعة المطار.. حتماً سيعاودها الاحساس المؤمل للطمأنينة والأمان..

شربت من كلمات الرسالة فاختفت تشققات الجفاف عن وجهها.. احتضنت اللحظة الساطعة وحزمت من ضوئها حزمة رائعة زرعتها وسط بيتها فغمرته بالنور.

استيقظت منذ انبلاج الفجر وقبل أن يستيقظ الصباح.. العصافير انطلقت مزقزقة حالما طالعتها، فتطلعت بدورها إلى حروف الكلمات الموشومة داخل قلبها وتنفست بارتياح..

ـ انتظريني!!..

محطة القطار تشرّع ابوابها وقد غصّت بخليط عجيب من البشر..

وحيدة كانت تقطع بلاطات الرصيف، لكنها وحدة عذبة.. ممتلئة...

اطلت بعينيها على عربات القطار المتوقف، لكنه تعجّل الانطلاق وانسّل بعيداً كأنه خاف من لهفتها الموجعة وغير المكبوتة.. خاف من احتمال امساكها لأي وجه من وجوه ركابه.

تعرقت اصابعها وهي تعتصر الرسالة ثم جفت.. مساحات جلدها تشرب العرق بعد فرزه مباشرة.

حرارة الشمس ربيعية باردة.. توقفت مسترخية تستقبل نسمات الهواء.. حين شعرت بقليل من تعب توجهت نحو نخلة قريبة واستندت إلى جذعها...

سعفاتها تتمايل وترسم ظلالاً متقاطعة تراوح بين قدميها وتعكس خطوطاً فوق الأرض.. شمت رائحة الاجساد المسرعة وهي تمر قريبة منها.. بعضهم كان يدنو حتى يلامس ذراعها المتدلية جنبها ويحتك بها فيصدر صوتاً خفيفاً كالهسيس.

مرّ الزمن وجذع النخلة يسند ظهرها بحنان قوي مثل كتفين عريضتين... خلف النخلة مباشرة يقبع ماضيها بحلاوة أيامه تتوهج فيه اجمل الذكريات، تسطع قوية متألقة.. تناغيها بصوت عذب ساحر وتدغدغ شفتين فتبتسم متأوهة.. ثم تنطفىء فينكمش وجهها ويعتصر الاسى قلبها.

شيء ضعيف يتململ ويقرصها داخل معدتها.. لم تأكل منذ الامس.. صامت دون نذر.. دون رمضان.. حلقها تيبّس واستحال قطعة من خشب...

وحده قلبها ظلّ مرتوياً.. الكلمات الموشومة على غشائه الداخلي تزقّه فتشبعه وترويه..

وقفت تتفحص الوجوه دون أن تخفي احاسيسها.. فرحة وخائفة كانت احاسيسها..

خوفها كان متشبثاً داخل اعماقها.. لم يكن شعوراً خارجياً مثل قشرة أو مثل ثوب تخلعه متى شعرت بعدم حاجتها إليه...

خوفها أن تتوقف القاطرت، وتتعطل العربات وتُغلق المطارات قبل أن يتم لقاؤها.

احاسيسها المتضاربة كانت ترتعش وتتماوج على بشرة وجهها فتبدو امرأة متوحدة مريضة ليس من دواء يشفي لها الآمها.

غيّرت الشمس موقعها وتسلطت عمودية فوق رأسها فاشتد الحر، كذا فعلت اوجاع معدتها.. التصقت بكتفي نخلتها العريضتين وشعرت بالفة قوية تشدها إليها فقد مضى الزمن الطويل وهما مستندتان لبعضهما...

النخلة تنحني أكثر، تهب علاقتها المزيد من الحميمية، تتمايل سعفاتها ملتمّة مع بعضها كما يفعل الصغار عند حلول الظلام ثم تسقط وتلامس شعرها.. لكن الشمس سرعان ما تملّ وقفتها فتنسحب بعيداً تجرجر معها ضياء اشعتها وقوة حرارتها...

ما أن ترى الرياح ما حدث حتى تزحف قوية مكتسحة..

رفعت عينيها نحو السماء.. رأت طائراً كبيراً خرافياً بحجمه ينشر جناحيه فتأفل الشمس ويغمر نورها الساطع.. لا يبقى منه سوى تموجات وردية اللون شاحبة تلتمع بوهن فوق ريشه الأبيض النظيف تعطيه شكل طائر جريح... اضطربت السحب البيضاء المتناثرة بعد أن بوغتت بالطائر ففرت بعيداً.

تعلقت بعيني الطائر المتسعتين ففوجئت بهما غائمتين مذعورتين...

فَهِمَ بعد فوات الأوان أنه كان يطير وحيداً وسط فراغ...

اضطربت وهي تراقب الكثيرين الذين هرعوا إلى عربات القطار يحتمون من خوفهم...

حتى العصافير الصغيرة استوحشت ورحلت تبحث عن آمانها.. هي وحدها ظلت مسمّرة حتى علّمت الأرض بشكل قدميها.. طال وقوفها وتسرّب الخوف من فشل جديد إلى جسدها فاثقله.. خسفت قدماها موضعيهما وتصلبتا مثل قدمي تمثال..

رفعت عينيها إلى النخلة فلسعتاها وشعرت برغبة بالبكاء... كانت حين ترفع رأسها للنخلة تجد خيطاناً من المشاعر الحيّة يمتد بينهما، تلقمه احاسيس صادقة لرفقة الزمن الطويل، احاسيس غير مرئية لكن متجددة فيشتد ذلك الخيط قوة...

أما الآن فلم يعد رفع رأسها للأعلى بالأمر السهل.. الوهن يتسلل إلى جسدها بطيئاً، لكن دون توقف، يغترف من دمائها ليحتل عروقها يمنع بذلك الحياة من استكشاف الحقيقة.

ما الذي سأمتلكه لحظة اعترافي بالفشل أكثر مما امتلكه الآن.. لكنني سابقى بانتظاره.

المسافرون تلاشوا.. عشرات من القاطرات الضخمة تعمل على تحذيرهم بالعويل الذي تطلقه في آذانهم ثم تبتلعهم.. ضحايا جدد للانتظار تُرقّن هوياتهم في اقل من لحظة، ذبلت عيناها مع اختفاء آخر شعاع للشمس.. نفذ الظلام عبر جزيئات الهواء فغمره وكساه بالسواد..

لم يعد للضجة صوت.. السكوت وحده يلغو حولها.. قلة من الرجال كانوا يمرقون متعبين، بنظرات كئيبة واكتاف متهدلة يجوسون مكان وقوفها متربصين مثل لصوص..

الغموض يلف المكان.. تمنت أن تظل شامخة لكن النخلة هي التي خذلتها...

شاخت بعد أن ناء جذعها بحمل السنوات فاندفعت باتجاهها واجبرتها على احناء ظهرها مثل امرأة عجوز.

الطيور الصغيرة تفرح بالضوء.. تغمر رؤوسها المدورة في اقداح الماء المترعة وتستحم.. اراقبها منتشية بالذكرى، لكن ومضة الذكريات سرعان ما تنطفىء فيزداد شعوري بالعطش والجوع.. أيّ شيء ابحث عنه وسط الغموض الذي يكتنف متاهتي؟..

اصارع وحيدة من أجل راحة البال في زمن لا يأبه إلاّ بالمسرّات.

ارتجفت اصابع كفيها.. اعتراها ذهول بائس وهي تجدها غير قادرة على تقديم العون.

ساعة المحطة تعلن تأخر الوقت.. عامل التنظيف يتثاءب متلفعاً بعتمة الليل المكثفة يكدّس بمكنسته ما خلفه المارون عبر ما مضى من أزمنة...

صرخ نعساً حين اصطدمت مكنسته بقدميّ المرأة... ركض زميل له لم يكن بعيداً والتّفا حولها.. امرأة تغفو وهي واقفة مستندة إلى جذع نخلة المحطة.

صعقا واقشعر بدناهما.. اقتربا يتفحصانها ثم ارتدا مبهوتين...

كانت عجوزاً غائمة الملامح.. يسكن وجهها حزن كثيف.. التجاعيد العميقة محفورة عليه بفوضى كأن طفلاً عبث به قبل أن ينام.. البرد يصبغه بالزرقة فيبدو مثل وجوه النساء الميتات.. تنبع منه رائحة سنوات طويلة موغلة في الماضي السحيق، سنوات مريرة محاصرة بالآلام...

تفرس احدهما بوجه الآخر ثم بساقيها النحيلتين المقوستين...

واستدارا ليواصلا عملهما وهما يصغيان لصوت الريح.

بغداد

صدر حديثاً

فاروق عبد القادر

رؤى الواقع وهموم الثورة المعاصرة

دراسات في المسرح المعاصر

دار الآداب ـ بيروت